هل أصبح (الالتزام) شعاراً رجعياً ؟!

لو أننا قرأنا مقال راسم المدهون ، النقد الأيديولوجي صار رجعياً بحنينه إلى ما فات (الحياة: ٧/ ١١) في السبعينيات أو مطالع الثمانينيات لعذرناه في ارتفاع نبرة صوته وفي هذه اللغة الغاضبة على النقد الأيديولوجي التي دبج بها مقاله ، أما وأنه يكتبه في العام ٩٢ وفي الوقت الذي يصطف أغلب المثقفين ، والفلسطينيين منهم على وجه الخصوص، في مربعه الذي يقف مدافعاً عنه بلا هوادة، فإننا لن نقول إلا أنه أحب أن يكتب مقالاً فجاءته هذه الفكرة التي قالها عشرات غيره من المثقفين الفلسطينيين مبررين هوبهم إلى تيار الحداثة، أو ما بعد الحداثة، الذي يتفنن في كتابة كل ما هو غير مفهوم للكاتب و للجماهير .

لسنا بحاجة إلى كثير من الصراخ أو سيل من الأدلة لنبرهن على أن أكثر المبدعين الفلسطينيين قد نكصوا على أعقابهم باتجاه الكلام غير المفهوم ، ليس إيماناً بنظرية العودة إلى الذات وتجلياتها الإبداعية كما يحاولون أن يقنعونا ، بل

---

* نشر هذا المقال في صحيفة " الحياة " اللندنية - ٣٠/ ١٢/ ٩٢ .

* الكاتب راسم المدهون اتهم كاتب هذه السطور في رده عليه (الحياة ٨/ ٢/ ١٩٩٣) بأنه يدعو الى شعر خطابي ومباشر. والحقيقة أن ذلك ليس صحيحاً، غير أن المشكلة هي أن هذا الوصف قد أخذ يطلقه أهل الحداثة على كل ابداع ملتزم ،لايجاد أرضية لتيار العموض.

استجابة لمتطلبات النقد الجديد الذي هيمن على الساحة مؤخراً والذي لا يرى في الابداع الملتزم سوى خطابة ووعظ، وحديثٍ في الشعارات والسياسة ولا علاقة له بالابداع .

نعم ، هذه هي الحقيقة التي يجب أن يواجه بها المدهون نفسه ، ومعه جميع الشعراء والمبدعين الفلسطينيين الذين اعتزلوا النضال ، وراحوا يبحثون عن ابداعات ترضي أباطرة النقد الجديد .

إنها ليست مسألة قناعات ، ودعوني أتهم ، وجلسات المصارحة لهؤلاء النفر تؤكد ما أقول ، لأن المبدعين الملتزمين، أو من بقي منهم ، قد أصبحوا يُتهمون بأنهم يعيشون خارج التاريخ ، وبأنهم يجترّون القديم ، وبأنهم غارقون في وهم الأيديولوجيا ، وبأنهم يكتبون مقالات سياسية وليس ابداعاً . . وبأنهم . . وبأنهم . . ومن هنا أصبح هذا الفريق يتناقص يوماً إثر يوم . وأصبح الحلاج وابن عربي والنفري ورموز الصوفية المعروفون هم الشعراء الحقيقيون الذين يجب أن تتلمس خطواتهم .

إن ذلك بالضبط هو ما يريده رابين ، وليقل عني راسم المدهون ، بأنني أيديولوجي متخلف . . نعم هذا ما يريده

رابين الذي وقف ذات يوم يمدح (الشيخ ياسين) أحد رموز الصوفية في فلسطين لأن إسلامه من النوع المسالم الذي ينبذ العنف ، ذلك الشيخ الذي عندما جاءه الضابط الصهيوني الكبير ليسأله عن حاجته عقب نكسة ٦٧، لم يطلب سوى استعادة بعض المسروقات التي أخذها الجنود الصهاينة من أهل القرية . . . تماماً كما فعل عبد المطلب ذات قرن أمام أبرهة الأشرم .

إنني أشعر أن تيار مجلة شعر قد انتصر انتصاراً باهراً ، فها هو ذا يضم دون أن يدري عشرات المبدعين الفلسطينيين الذين نددوا ذات يوم بارتباطات تلك المجلة المشبوهة !!.

ماذا في حديث عبد الله الحوراني رئيس دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية حتى يواجهه المدهون بهذا السيل من النقد ، أليس رائعاً أن "يواصل (المبدع الفلسطيني) نشيد الروح ويرسي في الذاكرة الجماعية وفي وجدان العالم أن فلسطين العربية لأصحابها العرب الفلسطينيين" ؟ مع أني لا أوافق الحوراني في أنَّ من حق السياسي أن يتنازل ويترك مهمة الدفاع عن الحق التاريخي للمثقف ، خاصة عندما يصل هذا التنازل إلى العظم ، كما هو حاصل في المفاوضات الحالية .

ماذا يريد (المدهون) إذن . . هل على المثقف أن يكون مرآة للواقع المهزوم مسوّغاً هزيمته ، أم أن مهمته التاريخية هي في أن يحافظ على الحلم نديّاً كما كان وينبغي أن يكون. أليست الأحلام جزءاً لا يتجزأ من الابداع ؟!

يا لفرحة الاعداء بهذا المنطق المهزوم الذي يسوّقه علينا راسم المدهون والكثيرون ممن يوافقونه الرأي . إن مهمتهم (أي الأعداء) في الابتلاع والهضم ستكون أسهل ما يكون . وإن مهمتهم في محو الذاكرة التاريخية للأمة ستكون أيسر مما توقعوا . . يا لفرحة أولئك الباحثين الصهاينة الذين يدرسون بعمق مرحلة الحروب الصليبية لتفادي نهاية كنهاية حطين ، مركزين دراساتهم على أشعار الجهاد التي سادت في تلك الفترة . . . يا للفرحة، فأشعار الثورة والنضال يجب أن تختفي بناء على دعوة راسم المدهون ، حتى لا تهيمن السياسة على الثقافة ، وحتى لا تطغى الشعارات على حيوية الابداع !! .

ثم ليقل لنا راسم المدهون ، أين هو التناقض بين أن يقول المبدع ذاته وبين أن يحاكي هموم شعبه وأمته . وما هي ذاته إن لم تكن جزءاً من روح شعبه وهواجسهم . إن المبدع هو الذي يستطيع أن يقول هموم شعبه وأمته ، مما لا

يستطيعون هم أن يعبروا عنه . ثم هل يحول التزام الشاعر بقضيته وحفاظه على حقه التاريخي دون أن يقول همومه ويترجم أحاسيسه الذاتية . . أبداً ، إنه تناقض مفتعل لتبرير الهرب والهزيمة .

هل عندما يقول محمود درويش :

لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا

والنهاية تمشي إلى السور واثقة من خطاها

هل عندما يقول ذلك يكون قد ابتعد عن ذاته . . أم أنه ترجّم أحاسيسه الخاصة وأحاسيس الملايين من شعبه الذين ينظرون بعين الشك والريبة إلى مسيرة المفاوضات الحالية ؟ إنه -وأكرر- تناقض مفتعل .

نعود ونقول : إن هذا الذي يريده (راسم المدهون) قد أصبح هو التيار الواسع والمهيمن ولا حاجة لأن يقطّع أحباله الصوتية في الدعوة إليه . وهو يقرأ بالطبع ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، تلك القصائد التي تنشر في (الكرمل) مجلة الثقافة الفلسطينية التي يصرف عليها من قوت شعبنا . والتي يرأس تحريرها "للأسف" محمود درويش . . تلك القصائد التي لا يفهم منها أبناء شعبنا ، أو من أكثرها على

الأقل ، شيئاً .

هكذا إذن . . فها إن الشعراء الذين لم تعرف أسماؤهم إلا على ظهر القضية، ولم تبرز قصائدهم إلا في المطبوعات الخاصة بمنظمة التحرير أو المؤيدة لها . . ها إنهم يتخلون عن خط الثورة والتحرير وينكفئون على ذواتهم تحت حجج واهية . والحقيقة أن ثمة مطبوعات أخرى قد أصبحت أكثر ضجيجاً ، ونقاداً أوسع نفوذاً ، لم يعد يعجبهم الشعر الثوري . ويريدون طلاسم ليقولوا فيها طلاسم مشابهة بحجة أن ذلك هو الابداع الحقيقي .

شعراؤنا والحمد لله ، أصبحوا يحقرّون شعبهم . . نعم يحقرون شعبهم ، فحين تسألهم لمن يكتبون ، يجيبونك بأنهم لا يكترثون بالجمهور العامي أو بالدهماء . . هكذا إذن تحول شعبنا إلى دهماء لا تستطيع التواصل مع درر هؤلاءالشعراء الأفذاذ ، وينبغي أن يسعوا بجد إلى الارتقاء بثقافتهم من أجل الوصول إلى المعاني العظيمة في قصائد هؤلاء !!

أما أولئك البقية الباقية من الشعراء والمبدعين الذين ما زالوا قابضين على جمر الوطن والقضية، والذين يحاولون التوفيق بين هندسة المعاني ومعادلات السياسة ، حسب

وصف الناقد شاكر النابلسي ، فهؤلاء أنصاف شعراء يحاولون ابتزاز تصفيق الجماهير بقول ما تريدهم أن يقولوه.. يا للمنطق !!

ثم إذا كان الابداع هو نتاج الاسئلة في ظل فضاء مفتوح على الاسئلة ، كما يقول راسم المدهون ، فلماذا لا تكون تلك الأسئلة عن سبب التردي الذي تعيشه القضية الفلسطينية والأمة بشكل عام . أم أن هذه الأسئلة لا لزوم لها ومتروكة لمعشر السياسيين ؟!

إنني لا أحب حديث المؤامرات ، ولكني لا أنفي هاجسي بأن ثمة من يريدون أن يبتعد المثقف الفلسطيني عن همه الوطني ، وهم ليسوا من الأعداء بالضرورة ، بل لعلهم وهو الأرجح من السياسيين أنفسهم .. والذين لا يرغبون في أن يأتي مثل محمود درويش ليقول لهم : هذا السلام سيتركنا حفنة من غبار

من سيدفن أيامنا بعدنا : أنت أم هم ؟ ومن

سوف يرفع راياتهم فوق أسوارنا : أنت .. أم فارس يائس؟ من يعلق أجراسهم فوق رحلتنا

أنت أم حارس بائس ؟ كل شيء معدّ لنا سلفاً

فلماذا تطيل التفاوض يا ملك الاحتضار؟

أو مثل المتوكل طه ليقول لهم :

أبشركم بالقارعة

وما سوف يدريك ما القارعة

خراب يكمل دورته التابعة

أو مثل عبد اللطيف عقل ليقول :

(يعبد) والشهداء ينامون في صفحة الفكسيميلي.

نعم ، إن ثمة من يريدون أن يشتغل شعراؤنا ومثقفونا بالحلاج والنفري ، بدل أن يوجعوا رؤوسنا بالحديث عن الحق التاريخي ورفض تحجيم حلم الدولة إلى بلدية . . وهذا ما يفعله ويروّج له راسم المدهون وأمثاله مع شديد الأسف .